عَطَشٌ

«ليستْ حياتي سوى شظيةٍ في مشهدٍ طبيعيٍّ»
(ياسوناري كواباتا)

صخبٌ يسيطرُ على تفاصيلِ المكانِ ودورةِ الزَّمَانِ ، أمَّا البَشَرُ- الأبطالُ - فقد تاهوا وسط ضجيج نتج عن اختلاط الألم وارتفاع جلبةِ الدهشة . لم ينجُ من الفوضى سوى بطلٍ واحدٍ فاستطاع بِحِنْكَتِهِ أن ينفلتَ من الدائرةِ قبل تصاعُدِ الحدثِ حيثُ وُجِدَ مقتولاً مفصولَ الرأسِ عن الجسدِ ، دماؤهُ الحارَّةُ متسربةً في اتجاهاتٍ عدَّةٍ أمَّا يَدُهُ فمازلتْ – تقبضُ - على مفتاحِ جامعِ البَلْدَةِ القديمِ والَّذي شيَّدَهُ الأجدادُ منذ مئاتِ السنين ، وتعبوا كثيراً في إرساءِ قواعدِ البِناءِ وإعلاء المئذنةِ الشاهقةِ صَوْبَ السماء ، رفض المقتولُ أن يعطيَ المِفتاح لأحدٍ وظلَّ متشبِّثاً به للنهاية..!

كانَ رجْعُ الصَّدى يرددُ كلماتِه التي ما فتئ يرددُها : اذهبوا وطهِّروا أنفسَكم ،نساءَكم وأولادَكم بينما هم فاغرين أفواهَهم لا يُلقونَ بالاً لمقتلِه.

جاءتْ الشرطة ،لملمتْ جزئَيْهِ على بعضِهما . مَرَقَتْ بسرعةٍ لتخترق الجمع لكن شبابا كثيرون وقفوا صفا واحدا يمنعونها من الحركة ويتسابقون فيما بينهم على الإدلاء باعترافاتٍ كاملةٍ عن قيامِهِمْ بقتل الرجل .. أصروا كثيرا وأقسموا على كونِهم القتلةَ فقط نظير حصولِهم على شيءٍ بسيط للغاية !! شَرْبَةِ ماءٍ تروي ظمأَهُمْ .

لم يكن أمام الشرطة مفرٌّ فأخذتْهم كلَّهم ..

ركبوا- جميعاً - العربةَ كانوا ستةً من الشباب وسابعُهم فتاةٌ صغيرةٌ لا يتجاوز عمرُها العشر سنوات لكنها أصرت وقد بلغ بها العطشُ مداه إنها القاتلةُ وراحتْ تمثِّلُ لهم بإتقانٍ مُحْكَمٍ الجريمةَ

تحركت العربة بهم وهم جالسون على المقاعد الحديديةِ الصَّدِئَةِ يحاولون أن يتفادوا نظراتهم لبعضهم البعض

راح كل واحد منهم يغمض عينيه متذكرا الأيام التي انقطعت فيها المياه عن

بلدتهم وكيف كانوا يذهبون إلي البلدات الأخرى المجاورة يطلبون الماء لكن المياه نضبت أيضا في البلدات المجاورة لتنضب مع الماء قدرتُهم على الاحتمال ويجرفُهم إحساسٌ مَقيتٌ بالجفاف وامتداد سطوة العطش

زاغتْ أعينُهم كثيرا وهى تتلفت في كل الاتجاهات لترى الأشياء حائرة وظمآى ومكتسية باصفرارٍ مَقيتٍ

حاول أحدُهم أن يشعل سيجارة لكن الآخر الجالس قبالته نهه موبخا بأن الرائحة ستزيد من الإحساس بالعطش فرمى بالسيجارة تحت قدميه وراح متأملا أرضية العربة يختلس النظراتِ بعيدا إلى الآبار التي جفَّتْ ،الضروع التي ذبلت ،الزرع الأخضر الذي انهدل عنفوانُه فدفن رأسه انحناءً وأسىً أمامَ جفوة التراب وسطوته..!

تهدوا في لحظة واحدة وهم يتذكرون تصايُحَهم فيما بينهم وإصرارَهم على أن يذهبوا للشيخ «عِفَّت عبد المولى» ليؤمَّهُمْ للصَّلاةِ

جعلهم صدى العطش الذي بلغ غايتَه رهائنَ الاستسقاء وطالبي الرحمات فتجمَّعوا في باحة دار الشيخ مطالبين أن يؤمهم للصلاة

مرَّت العربةُ المترنحةُ والمثقلة بالشخوص على احد المطبات الصناعية فرفعت أجسادَهم لأعلى ثم قذفت بهم لأسفل فأحسوا بوجع يُضاف إلى

أوجاعهم وانفلتت من فم الصبيَّةِ صرخةٌ باكيةٌ وجاءَهم الصوتُ جليَّاً بعد أن رفض بشدة أن يؤمهم للصلاة

قائلا لهم بثبات : الماءُ طاهِرٌ مطهِّرٌ لا يطلبه إلا طاهرٌ اذهبوا فتطهَّروا ولا تأخذنَّكُم الغفلةُ..!

لكن الأمر ازداد سوءاً واللهيب ازداد اجتياحاً . راحوا يزدادون حِدَّةً وارتباكا وشراسةً ثم بدأت الأطفال والعجائز والبهائم تَنْفُقُ واحداً تلو الآخر

فما كان منهم إلا أن ذهبوا إليه يرجونه ويستعطفونه أن يرأف بحالهم لكنه ازداد تشبثا بالرفض

تشاوروا فيما بينهم واستقرَّرأيُهم على اختيار شيخٍ آخر ليؤمَّهم للصلاة ففرح كثيرا ووافقهم وجاء معهم إلى الشيخ (عِفَّتْ) طالباً منه مفتاح الجامع لكنه ازداد تشبثاً برأيه وأجابهم بكلمات صريحة لا لبس فيها ولا تحتمل التأويل : أنتم وحقِّ الله غافلون..!

اغتموا الفرصةَ التي جاءتكم فمفاتيحُكم بأيديكم ، وأقفالُكم رهنُ قلوبِكم ، اذهبوا وطهِّروا أرواحَكم وأبدانَكم، نساءَكم وأولادَكم ، مالكم صامتين عن

أموالكم المكدَّسة وأفعالِكم المدنَّسة ومصارف مياهكم الأَسِنَةِ فقط حاولوا ولو مرة ثم تعالوا نقفُ بين يدي الله نسأله أن ينزّل علينا من السماء البركات ومن السحاب الماء

تبادلوا فيما بينهم النظراتِ وكلما تقابلت نظراتُهم في لحظةٍ تنافرت في نفس اللحظة خيفةً..!

حاولوا مرارا الهروب من تلك اللحظة التي تواطأوا فيها للتخلص من شيخهم نهائيا وكيف أوعزوا لكُبَرَاءِ البلدة وسادتها أنَّ الشيخ (عِفَّت) سيصح مناضلاً أمام قضبان سجونهم

وفي مقر إحدى الجهات السيادية العليا تم تهديد الرجل وتعذيبه بطرق قديمة ومكررة لكن الرجل لم يستسلم بل صاح بهم : سأموت عطشا مثلكم لكني لن أبيعكم الحقيقةَ نظيرَ بضعة ثمرات من أشجار الوهم ..!

ولم يصلوا لشيءٍ غير أن أيام أخرى انقضتْ ازداد فيها الألم وراحت البلدة تعاني مزيدا من السلب والنهب والفوضى ،ازداد الهجوم على البيوت وحفر الأراضي بحثا عن آبار للماء وأصبح وشيكا اندلاع ثورة العطشى وبين عشية وضحاها بثت القنوات الفضائية والإذاعات الإخبارية حديثا مطولا لشيخ شاب في مقتبل عمره يتحدث عن رحمة الله الغفور الرحيم المفتوحة أبوابُه للبشر أجمعين والقابل توبة الجميع دونما شرط التخلي عن شيءٍ

عمت الفرحة ، استبشر الناس والتفوا حوله . خلعوا عليه ثوب الإمامة وطالبوه لأن يؤمهم للصلاة فوافق دون تردد وأظهر لهم إحدى النسخ الاحتياطية لمفتاح الجامع وأمرهم جميعا أن يأتوا في صباح اليوم التالي وقد تيمموا بالتراب

كانت العربة مازالتْ تسير عندما نطق الشاب الثالث ناحية اليمين : قتلناه، تواطأنا عليه عندما لم نفهم، فبعض الغباء تواطؤٌ

رد الذي في المنتصف ناحية اليسار: كان لابد لنا أن نفهم

فرد الأول ناحية اليسار وقد بدا على وجهه الندم : كانت الأمور تسير بسرعة البرق كنا طرفا فيها لكنا لم نكن الطرف الأقوى !! ازدادت حِدَّةُ الجدل والعتاب فيما بينهم في لحظةٍ حالكةٍ تشبه كثيرا غبشة الفجر حين جاءوا ليؤمهم الشيخ الجديد ويقيم الصلاة بينما النساء تزغرد ، الأطفال تهلل حتى البورصة كانت تترنح ارتفاعا وانخفاضا من تأثرها بالأحداث

كان مشهدا مَهيبا اقشعرَّتْ له الأبدان و بثته وسائلُ الإعلامِ العالميةِ والإذاعات المحلية وأغرقه المحللون في فيض من الاستنتاجات والتحليلات الأكاديمية

موضحين قدرتنا كبلد متحضر في القضاء على الإرهاب وقتل خفافيش الظلام التي ضلت عن الحق وفسرت الشريعة السمحاء كما يحلو لها
ووسط هدوء قاتل وقفت العربة ونزل منها الشباب وقد بلغ بهم إعياء العطش مداه ، أوقفوهم عند بئر الماء ليشربوا، كان سطح الماء يترقرق عاكساً صوَرَهُم ، بينما كان هناك رجلٌ مهمةٌ ملامحُهُ وغائمةٌ صفاتُهُ وقف أمامهم يسأل عن كتاب كان بجانب الشيخ (عِفَّتْ) لحظة مقتله ؟؟ كان لا وقت لديه لتهديدهم أو حتى النقاش معهم كان يسبر أغوارهم وينظر على تفاصيلهم وهم عرايا ويعيد السؤال عن الكتاب لكنهم في لحظة خاطفة ركضوا جميعا صوبَ غابةٍ موحِشَةٍ متشابكٍ ظلالُ أشجارها ودون اتفاق مسبق أصروا جميعاً على الصمت ورفض الماء وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض وبصوت عالٍ راحوا يصرخون : سنموت عطشا ولا ماء سيبللُ شفاهَنا حتى تأتونا بمن قتل (عِفَّتْ) واستنسخ المفتاحَ ثم ألقى بالكتاب جانباً في دهاليز الهجر المعتم والنسيان ...!